المحاضرة الرّابعة

الاحتجاج للقراءات: تعريفه وأسبابه وتاريخه

1.مفهوم الاحتجاج للقراءة: الاحتجاج للقراءة فنّ من فنون القراءات، ارتبط تطوّره بها منذ بدأت حروفا متفرّقة إلى أنْ صارت علما مستقلاّ، فقد كان في أوّل عهده غضّا، يقتصر على المشابهات القريبة الّتي تعقد بين القراءات أو سائر أساليب اللّغة في اللّفظ أو المعنى أو التّركيب".

"ويراد بالاحتجاج الكشف عن وجه القراءة في نحوها أو صرفها أو لغتها وتسويق الاختيار، وذلك بأساليب اللّغة الأخرى من قرآن وشعر ولغات، ولا يراد به توثيق القراءة أو إثبات صحّة قاعدة نحويّة فيها... لأنّ القراءة سنّة ثابتة صحيحة في عربيّتها، وما الكشف عن وجهها والدّفاع عنه".

كما عرّف على أنّه: "علم يقصد منه تبيين وجوه وعلل القراءات من حيث اللّغةُ والإعرابُ، والمعنى والإيضاح عنها والانتصار لها".

2.مصطلحات الاحتجاج: للاحتجاج مصطلحات وأسماء نذكر منها: (وجوه القراءات، علل القراءات، معاني القراءات، إعراب القراءات، توجيه القراءات).

3. أسس الاحتجاج للقراءات: وضع العلماء أسسا ومعاييرَ للاحتجاج للقراءة

- **الرّواية والسّند:** فالقراءة قائمة على الرّواية، وصحّة الإسناد ركن أساس من أركان القراءة الصّحيحة؛

- **القياس اللّغويّ صوتا، وصرفا، ونحوا ودلالة:** وهو النّوع الغالب في أصول الاحتجاج، فمن شروط صحّة القراءة موافقة ولو وجه واحد من وجوه العربيّة، وما دامت كذلك فلابدّ من الاستعانة بالقياس اللّغويّ للاحتجاج للقراءات القرآنيّة.

- **رسم المصحف الإمام العثماني**: وهو ركن أساس من أركان القراءة الصّحيحة المقبولة غير المردودة أو الشّاذة ويستعمل له أحيانا مصطلح أحيانا مصطلح الخطّ أو السّواد أو المصحف، أو الإمام.

- **النّقل**: وهي النّصوص الصّحيحة الثّابتة المتواترة المنقولة نقلا مضبوطا عن أصحابها، متمثّلة بالقرآن والقراءات والأحاديث الشّريفة وغيرها من النّصوص الصّحيحة.

- **أسباب النّزول**: قد يراعى سبب النّزول في الاحتجاج للقراءات القرآنيّة، فالنّصّ القرآنيّ غير مقطوع عن سياقه المتمثّل بشقّيه: اللّفظيّ: الّذي هو عبارة عن تناسق الآية مع ما قبلها وما بعدها، والحالي: المتمثّل بملابسات النّصّ ودواعيه وظروف نزوله.

4. مراحل الاحتجاج للقراءات القرآنيّة:

1.4. الاحتجاج غير المنظّم بكتاب معيّن: كانت عبارة عن احتجاجات فرديّة لبعض القراءات غير مجموعة في كتاب بعينه ولنا مثال في ذلك؛ حيث روى الزّجاجيّ ما حدث بين يونس بن حبيب وعبد الله بن اسحاق الحضرميّ، قال يونس: "مضيت إلى عبد الله بن اسحاق الحضرميّ فقلت له: كيف تقرأ ﴿فإذا برِق البصر﴾ فقال: (فإذا برَق البصر) بفتح الرّاء فقمت من عنده إلى أبي عمرو فقال: من أين بك؟ قلت: من عند عبد الله بن أبي اسحاق الحضرميّ سالته كيف تقرأ ﴿فإذا برِق البصر﴾ فقال: (فإذا برَق البصر) بفتح الراء فقال أبو عمرو: فأين يراد به؟ يقال: برَقت السّماء وبرق النّبت وبرقت الأرض، فأمّا البصر فبرِق. كذا سمعنا".

ومن بين الكتب الّتي ورد فيها هذا النّوع: (معاني القرآن للفرّاء، معاني القرآن للأخفش، إعراب القرآن للنّحاس).

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الكتب تمتاز: بالمزج بين التّفسير وبيان المعاني، والتّوجيهات النّحويّة واللّغويّة.

4. 2. **الاحتجاج المنظّم بكتب مختصّة بالقراءات:** اهتمت بالقراءات وجمعها وبيان إسنادها، وتقسّم إلى قسمين:

- **القسم الأوّل**: ذكر القراءة وقارئها من دون التّعرّض للحججها وعللها، وتمثّل الخطوة الأولى: جمع القراءات، والاحتجاج هو الخطة الثّانية. تسمّى: خطوة توثيق القراءات وتخريجها).

- **القسم الثّاني**: مؤلّفات تتعرّض للقراءات بحججها وعللها، وهي الّتي تمثّل الخطوة اللاّحقة للخطوة الأولى فبعد التّدوين والتّوثيق يبدأ الاحتجاج لها ببيان صحّتها.

5. **أصول الاحتجاج:** للاحتجاج أصول يبنى عليها:

- **السّماع**: "الكلام العربي الفصيح المنقول بالنّقل الصّحيح الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة".

وعليه فالسّماع ركن رئيس في الاحتجاج اللّغويّ؛ بل أصل مهم تثبيت القواعد؛ فهو وثيق الصّلة بالرّواية الأدبيّة والنّصّ القرآنيّ وقراءاته وكذلك الحديث الشّريف باعتبارها جميعا نصوصا يعتمد في نقلها على السّماع والرّواية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ جلّ القرّاء من رواة اللّغة كأمثال: عبد الله بن إسحاق الحضرميّ، ويحي بن يعمر، وعيسى بن عمر الثّقفي، وأبي عمرو بن العلاء؛ لذا قيل في أبي عمرو بن العلاء: "وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها".

يقول ابن خالويه: "اللغة سماع وليست قياسا" وقيل: "أنّ اللّغة لا تقاس، وإنّما تؤخذ سماعا".

- **القياس:** "حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه" فالقياس ما هو إلا محاكاة لكلام العرب وطرائقهم اللّغويّة، وحمل كلامنا على كلامهم، لن تتمّ هذه المحاكاة إلاّ إذا أخذنا بالقواعد اللّغويّة والنّحويّة والصّرفيّة الّتي وضعها مؤسّسو النّحو بعد استقرائهم الكلام العربيّ الأصيل في فصاحته وعروبته على اختلاف القبائل المتكلّمة به، وتعدّد مساكنها وتنوّعها".

ومن القرّاء الّذين اعتمدوا على القياس وهم من النّحاة نجد (أبا عمرو بن العلاء) حيث كان "يأخذ بالاطّراد في القواعد ويتشدّد في القياس" والأمر ذاته عند الإمام الكسائيّ فكان النّحاة الكوفيّين الّذين اشتهروا بالقياس فقد قال:

إنّما النّحو قياس يتّبع وبه في كلّ أمر ينتفع

ومن الأمثلة الّتي اعتمدت على القياس في القراءات ما ذهب إليه (أبو علي النّحويّ) كسر نون التّوكيد الثّقيلة في الفعل المضارع المتّصل بألف الاثنين على كسر نون المثنّى يقول: "وإنّما كسرت الشّديدة بعد ألف التّثنية في نحو ﴿لا يتّبعانِّ﴾ لوقوعها بعد ألف التّثنية فأشبهت الّتي تلحق الألف في المثنى (رجلان) و(يفعلان) لمّا كانت زائدة مثلها". فالمقيس هو نون الثّقيلة والمقيس عليه نون المثنّى. والحكم كسر النّون والعلّة الجامعة وقوعها بعد الألف.

ومن هنا اعتمد النّحويّون الكثرة في المقيس عليه.

6. موقف النّحاة من الاحتجاج للقراءات: معروف أنّ النحاة –في المشهور- على مذهبين: مذهبِ البصريّين، ومذهب الكوفيّين؛ لذا نجد اختلافا كبيرا بينهما في الاحتجاج يقول (محمد خير الحلواني): "إنّ النّحاة لم يكونوا على منهج واحد في أمر القراءات القرآنيّة الّتي تخرج عن قراءة الجمهور؛ فمنهم من ردّ بعضها، وقبل بعضا آخر، ومنهم من جعل قراءات القرآن كلّها حجّة".

ونجد (خديجة الحديثي) تبين عن منهج النّحاة البصريّين والكوفيّين في الاحتجاج بالقراءات؛ حيث تقول: "فالاستشهاد بالقراءات المتواترة غير المخالفة للقياس سار عليه البصريّون، كما سار عليه الكوفيّون، أمّا الاحتجاج بالقراءات الشّاذّة والقياس عليها، واعتبارها أصلا من أصول الاستشهاد فهو ليس من منهج البصريّين؛ لأنّه لم يكونوا يعتبرون من القراءات حجّة إلاّ ما كان موافقا لقواعدهم وأقيستهم وأصولهم المقرّرة؛ فإنْ خالفها ردّوها، في حين كانت القراءات مصدرا من مصادر النّحو الكوفيّ".

والأمر ذاته نجده عند (مهدي المخزومي) إذ يرى أنّ "القراءات مصدر هامّ من مصادر النّحو الكوفيّ، ولكنّ البصريّين كانوا قد وقفوا منها موقفهم من سائر النّصوص اللّغويّة، وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم، فما وافق منها أصولهم ولو بالتّأويل قبلوه، وما أباها رفضوا الاحتجاج به، ووصفوه بالشّذوذ، كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الرّوايات اللّغويّة، وعدّوها شاذّة تحفظ ولا يُقاس عليها".